بين المهابة والعدل

الأستاذ عباس محمود العقاد

بارك الله في سيرة ابن الخطاب حياً وميتاً . أي رجل كان ؟

إنه ليعمل ما دام يذكر ، وإن أثره بعد موته بأربعة عشر ألف سنة لن أكبر آثار هذه الحياة الخالدة . فإن أكثر من عشرين ألف شاب في مقتبل الحياة يشغلون اليوم عقولهم ونفوسهم بفهم العظمة العمرية في شتى مناحيها ، وليس أنفع للشاب الناشئ من عرفانه بهذه السليقة العظيمة وهذا الخلق العظيم .

ومن أعجب الأشياء إلى أن أتلقى في البريد ، حيناً بعد حين ، سؤالاً من طلاب العلم الناشئين يدل على عنايتهم بالنفاذ إلى حقيقة هذا الرجل النادر الذي يقل نظراؤه في تواريخ الأمم كافة . فإن العقول الفتية لن تسمو في أفق النبوغ بمعراج أشرف من هذا المعراج ولا أوثق منه في أساسه المكين .

وقد أخذت نفسي بالإجابة عن كل سؤال من هذه الأسئلة ينتظره مؤلف الكتاب من قرائه المجتهدين في استيعاب معانيه . وحدّ هذه الأسئلة أن تدور على الموضوع ولا تنحصر في معاني المفردات ، لأن المفردات من شأن المعجمات التي تتداولها الأيدي وليست من صميم الموضوع الذي يرجع فيه إلى المؤلفين .

ومن هذه الأسئلة هذا السؤال من الأديب صاحب الإمضاء. قال بعد تمهيد نشكره عليه :

« ... لقد كنا نقرأ في باب إسلام عمر فمضت علينا نقطة فأردت أن أرسل إليكم كتاباً أرجو فيه التوضيح ، وترددت كثيراً ولكني تشجعت وكتبته . فأود أن تفسحوا صدركم الرحب لهذا السؤال .

« ذكرتم في باب إسلام عمر أنه بعد أن أسلم أبى إلا أن يخرج ليضربه أناس كما كان يضرب أناساً في سبيل ذلك الدين ، وأنه سار إلى الناس يضربونه ويضربهم إلى آخرها في هذه القصة ، وهي إن اتفقت مع عدل عمر وحبه للمساواة ، فإنها تناقض مهابته وشجاعته . إذ من كان يجرؤ على أن يمدّ نظره — فضلاً عن يده — إلى عمر رضي الله عنه وهو الذي تنحنح مرة والحجام يقص شعره فما كان من الحجام إلا أن ذهل عن نفسه وكاد أن يغشى عليه . وكذلك في قصة هجرته التي رواها علي رضي الله عنه : قلتم إنها تدل على شجاعة عمر وعدله ، وأنا أرى أن هذه القصة — وإن كانت برهاناً ساطعاً على شجاعة الفاروق — فإنها لا تحمل من معانيها أي شيء من العدل ...

« هذا ما أردت أن أسألكم فيه ... والسلام عليكم ورحمة الله.

فتحي زكي الحرار

بمدرسة شبين الكوم الثانوية

* * *

ولاشك أن سؤال الطالب النجيب له وجهه ، أو له ما يسوغه ؛ ومن مسوغاته على الأقل توضيح شيء في علم النفس ، يتعلق بحياة ذلك الرجل العظيم كما يتعلق بكل حياة .

فالتناقض لا يكون إلا في اختلاف الأمرين لصفة من الصفات في حالة واحدة ، أو حالات متشابهة .

أما إذا اختلفت الحالات واختلفت الآثار ، فلا تناقض هنالك على الإطلاق .

لأن الاختلاف يؤدي إلى الاختلاف ، ولا يؤدي إلى اتفاق .

ورب عمل واحد يؤدي اختلاف مناسباته إلى اختلاف الحكم عليه ، حتى يكون الحكم عليه في إحدى المناسبات نقيض الحكم عليه في مناسبات أخرى

فأنت تقدم الطعام إلى السائل الجائع فأنت محسن إليه وهو في مقام المحتاج إليك !

وأنت تقدم الطعام إلى صديقك فهو يسرك بذلك كما تسره ، ولا تقف منه في هذه الحالة موقف صاحب اليد العليا من صاحب اليد السفلى ، كما يقولون في مواقف الإحسان .

وأنت تقدم الطعام إلى أميرك فيشرفك أن يقبله ويستجيب دعوته ، ويوشك أن يكون محسناً إليك بقبول طعامك ، ولا تكون أنت المحسن إليه .

والعمل هنا واحد وهو تقديم الطعام .

ولكن اختلاف المناسبة هو الذي يوجب اختلاف الحكم عليه إلى هذا المدى الواسع من الاختلاف .

ونقترب من المثل في إسلام عمر فنقول : إن البطل الرياضي يخيف إذا وقف في حلقة المصارعة ، لا يقترب منه كل مصارع

إذا أنس من نفسه القدرة على الصمود له والأمل فى التغلب . .

ولكن هذا البطل الرياضى يعلم تلاميذه ويتعرض لمنازلتهم .عوهم إليها ، فيتقدم له أصغرهم وأكبرهم على السواء ، وربما د أن يتمكنوا منه ليريهم كيف يكون التمكن من الخصوم . يشعرون بين يديه بتلك الهيبة التى يشعر بها خصومه عند . فى الصراع .

ونقترب خطوة أخرى فنقول : إن الطفل يهاب الرجل كبير ولا يخطر له أنه قادر على ضربه ، ولكنه إذا علم أن أباه ، ن رجلا فى قوة أبيه ، يستدرجه إلى ملاكمته هجم عليه ونسى رق بين قوته وقوة ذلك الرجل الكبير .

وعمر بن الخطاب كان يتعمد أن يتعرض للضرب فى ذلك ف ، ويسعى بنفسه إلى ضاربيه .

وكان المشركون يعلمون ذلك من عمله ومن كلامه ، ثم ون أنه رد جوار خاله لأنه لا يريد أن يحتمى من ضربهم ك الجوار .

ومهما يبلغ من مهابة إنسان ، فإن المهابة لا تمنع أن يتكاثر . عشرون أو ثلاثون وهم فى حماسة النيرة على العقيدة حول ت وأصنامه . ثم ينجلى لهم الخطأ بعد التجربة « حتى يحجموا ويفتر من طول الصراع » فيجلس وهم قائمون على رأسه ونه ، وتمنعهم مهابته مع ذلك كله أن يجهزوا عليه ، وهو ب بين الفتور .

ويبقى أن نذكر هنا أن حماسة الدين كانت تضاف إلى مهابة بعد إسلامه ، فإن حماسة المسلم لدينه كانت تزيد مهابته لهذا م العظيم .

أما حماسة الدين فى أنفس المشركين فقد كانت تثور على هذه ة ولا تضاف إليها . فهى هنا من أسباب الاجتراء وليست أسباب التوقير .

* * *

وقصة الهجرة التى رواها على رضى الله عنه هى كما قال : ا علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر الخطاب ، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يده أسهماً واختصر عنزته ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها . فطاف بالبيت سبعاً متمكناً ثم أتى المحراب فصلى ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة يقول لهم : شاهت الوجوه . لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ! من أراد أن يثكل أمه أو يوتم ولده ، أو يرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى .. »

وقد عقبنا على ذلك فقلنا « إنه كان فى تحديه هذا لقريش عدتان : شجاعته وعدله » .

والطالب الأديب يقول إنه يرى فى هذه القصة دليل الشجاعة ولا يرى فيها دليل العدل .

وليست الشجاعة والعدل نقيضين .

وإنما تعرف الصفات بالبواعث عليها ، أو بالنيات كما قال النبى عليه السلام . فتكون الشجاعة على الظلم على قدر النفور منه وانطباع النفس على الإنصاف .

ولو كان ابن الخطاب يقصد إلى الهجرة وكفى لما كانت به حاجة إلى هذا التحدى فى حرم الكعبة .

ولكنه تحدى الظلم من فرط شعوره بالعدل .

وقد كان يشتد على المسلمين وهو مشرك ، فليس من الإنصاف أن يتراجع عن المشركين وهو مسلم .

ولقد رأينا أن صديقه أبا بكر لم يستثره بكلمة حين أراد أن يستثيره لحرب الردة كانت أفعل فى نفسه من قوله : أجباراً فى الجاهلية وخواراً فى الإسلام ! .

فكانت شجاعته هنا منوطة بعدله ، وكان عدله هو الذى أوجب عليه أن يقدم بعد إحجام ، ولم يكن إحجامه لقلة الشجاعة فيه ؛ بل أحجم حتى لمس موضع العدل فى العاملة ، فأشفق أن يكون له ميزان فى الجاهلية وميزان فى الإسلام .

إن الشجاعة تصدر فى النفس من بواعث كثيرة :

تصدر من حب الاستعلاء فلا تبالى بظلم الضعفاء .

وتصدر من حب الإنصاف فلا تبالى بقوة الطغاة .

وتصدر من الطمع أو من السورة الحيوانية ، أو من جهل العواقب ، أو من غفلة الحس عن مواطن الخوف .

فأى هذه الشجاعات كانت شجاعة ابن الخطاب ؟

إنها شجاعة الرجل المطبوع على العدل ، والرجل المجرى على